# قضية الإعجاز القرآني في دراسات السابقين

أ.د سامي عبد الله أحمد الكناني
جامعة الأمير عبد القادر

جرت سنة الله في خلقه أن يبعث لكل أمة رسولا منهم يبلغهم رسالاته وتعاليمه الحكيمة إلى أن بلغت الإنسانية قمة رشدها، فبعث إليها خاتم النبيين والمرسلين محمدا (ص)، وأنزل معه القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد ليخرجها من الظلمات إلى النور، وينقذها من حيرة التيه والضلالة، ويحررها من الظلم والجهالة، ويشيد لها أعظم دولة ليس لها نظير من أول الخليقة إلى أن تلقاه.

ومن البديهي أن القرآن الكريم هو كلام الله المعجز، وبرهانه الساطع، عجز أساطين الإنس والجن عن الإتيان ولو بسورة من مثله، وكان أعظم سلاح حمله النبي (ص) بوجه أعدائه، بل هو معجزته الخالدة على الامتدادين الزماني والمكاني، والدال على صدق نبوته.

ولا أدل على تقرير أمر الإعجاز من آيات التحدي في القرآن الكريم، فقد تحداهم الله جل وعلا على فترات مختلفة ومراحل متعددة. فبدأ التحدي لهم على أن يأتوا بحديث مثله وهم أرباب الفصاحة و البلاغة وفيهم عزة وإباء، غير أنهم عجزوا عن ذلك بدليل قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[1]. ثم تحداهم الله سبحانه أن يأتوا ببعضه، أو بسورة منه فقال: (أم يقولون آفتراه قل فآتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[2]، وقال أيضا، (أم يقولون افتراه قل فآتوا بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[3].

وكان الجدير بالعرب وهم قوم عقلاء وفصحاء قد بلغوا الغاية القصوى من الفصاحة، وتسنموا الذروة العليا من البلاغة أن يجيبوه إلى ما يريد، ويسقطوا حجته بالمعارضة لو كان ذلك ممكنا غير مستحيل لديهم.

لقد تحداهم القرآن في أبرع كما لاتهم، و أظهر ميزاتهم، فلم يأتوا بما يماثله ولو بأقصر سورة منه بنظيرها في البلاغة فيسقطوا حجة هذا التحدي، ويسجلوا لأنفسهم ظهور الغلبة، ويستريحوا من الجروب الطاحنة، و بذل الأموال، و تحمل الشدائد والمكاره. و لكن أنى لهم ذلك والقرآن هو كلام الله المعجز الذي لا يدانيه كلام مخلوق مهما أوتي من براعة في البلاغة واللسان.

فالعرب فكروا في بلاغة القرآن الكريم و أذعنوا لإعجازه، وعلموا أنهم مهزومون في أية معارضة، فخضع جلهم لدعوته ففازوا بشرف الإسلام، وركب بعضهم الآخر جادة العناد فأختار المقابلة بالسيوف على المعارضة بالحروف، و آثروا المبارزة بالسنان على المعارضة بالبيان فخسروا الدنيا والآخرة[4]. فالعجز والمقاومة من هؤلاء المعاندين دليل قاطع، وحجة بالغة على كون القرآن وحيا إلهيا خارج عن العقلية البشرية وفوق قدرتها.

ومضى عصر الوحي والتحدي لما يزال قائما، وجاءت عصور وعصور وفي الناس من لو أتى على الإسلام من أساسه حقدا منه، ولكنهم ذلت له رقابهم فطأطأوا رؤوسهم، وحيل بينهم وبين ما يهدفون كما فعل بأسلافهم من قبل. وهكذا يبقى القرآن الكريم قائما وشهادات الكثيرين بأنه معجز والتحدي مفتوح حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فالقرآن معجز وأن الإعجاز من أبرز خصائصه، ولا خلاف بين العلماء في هذه الحقيقة، بل ولا مجال للشك في صحته، ولكنهم اختلفوا في تحديد وجوه إعجازه، فما هي تلك الوجوه إذن؟

إن قضية الإعجاز شغلت العلماء والدارسين قديما وحديثا فصنفت المؤلفات التي عالجت هذا الموضوع، فثمة آراء متعددة ومختلفة في تحديد وجوه إعجازه فمن أبرزها:

أولا: الرأي المشهور الذي ذهب إليه جمهور العلماء والمحققين: في أن أسرار الإعجاز تكمن في القرآن ذاته، وترجع إلى أمور موجودة فعلا في سوره وآياته.

ثانيا: الرأي القائل بأن الإعجاز وقع بالصرفة، أي أن الله تعالى صرف العرب من معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم مباراة القرآن لولا وجود أمر خارجي أعاقهم عن ذلك.

وأول من قال بهذا الرأي أبو إسحاق النظام (ت 231هـ)[5] أحد رؤوس المعتزلة، و تابعه عليه قلة من العلماء منهم الجاحظ (ت 255هـ)[6].

وجدير بالتنبيه أن هذا الزعم البعيد عن الواقع والمنافي لحقيقة الإعجاز، قد قام المحققون من العلماء قديما وحديثا بأبطاله ورفضه ونقد وجوهه وتفنيدها بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة على النحو الذي ورد في أمهات كتب الإعجاز و البلاغة[7].

ثالثا: الرأي القائل بأن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق وبه وقع التحدي[8]. وناقش هذا الرأي جملة من العلماء كالباقلاني والسيوطي وغيرهما، ونقدوه، وأكدوا على أن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به[9].

وبعضهم يقول، إن وجه الإعجاز في سلامة ألفاظه مما يشين اللفظ؛ كالتعقيد والاستكراه ونحوهما مما عرفه علماء البيان، وهو رأي غير وجيه ومرفوض على أن القائلين به لم يلابسوا صناعة المعاني.

وآخرون ذهبوا إلى أن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه ومقاطعه وفواصله؛ أي فكأنه بدع من ترتيب الكلام لا أكثر[10].

والصواب ما قاله جمهور المسلمين في أن الإعجاز وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ[11].

فالعلماء المسلمون بعد عصر الجاحظ قد أولوا اهتماما بالغا وعناية كبيرة في دراسة القرآن الكريم وكشف حقيقة إعجازه.

وأبرز من ألف في موضوع الإعجاز وقتئذ العالم الكبير أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384 هـ)[12] الذي صنف رسالته المعروفة بـ "النكت في إعجاز القرآن"[13]، وقد فصل فيها ذكر آراء العلماء المشهورين بدراسة موضوع الإعجاز، وأوضح موقفه منها جميعا، وبين رأيه المختار.

وتناول في رسالته المذكورة أيضا حقيقة الإعجاز البلاغي ووضعها في أعلى مراتب البلاغة، ووصف كتاب الله المجيد في هذه الدرجة بأنها بلاغة معجزة، لأنها بلغت أقصى ما يمكن أن يصله التعبير العربي، وأن بلاغة البلغاء مهما ارتقت فهي ممكنة، في حين أن بلاغة القرآن الكريم معجزة لا يقدر عليها أحد.

ومجمل نظرية الرماني في قضية الإعجاز فهي تظهر من سبع جهات:

1- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة. 2- والتحدي للكافة.3- والصرفة.4والبلاغة.5- والأخبار الصادقة.6- ونقض العادة.7- وقياسه بكل معجزة.[14]

وأكثر الوجوه اهتماما لديه الوجه البلاغي. فهو يقسم البلاغة إلى ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة.

ويؤكد الرماني على أن ما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان من دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليس لديه أن البلاغة من باب إفهام المعنى وإنما هي إيصاله إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

فالبلاغة-كما يقسمها- عشرة أقسام: "الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلازم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان". ويفصل القول في كل قسم منها، ثم يقارن بين ما جاء به العرب وبين ما جاء به القرآن، فيسلط الضوء على ما بينهما من تفاوت في مستوى التعبير، وجمال التصوير، وروعة الأداء القرآني.

ويجئ بعده أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت سنة 388هـ)[15] فيصنف رسالته المعروفه بـ "البيان في إعجاز القرآن"[16]. يقرر في رسالته المذكوره أن الناس قديما وحديثا ذهبوا

في موضع إعجاز القرآن مذاهب شتى ولم يصدروا عن رأي. ويناقش فكرة الصرفه، وفكرة تضمن القرآن الكريم للأخبار المستقبلة، ويعيب على القائلين بها، لاعتمادهم على التقليد وعدم التحقيق، وقصور كلامهم عن الإقناع.

ويعالج الخطابي هذا الموضوع على طريقته، ويؤكد أن حقيقة الإعجاز تكمن في وجهين:

الوجه الأول كون القرآن معجزا، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم.....الخ، والإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتنسق هو أمر تعجز عنه قوى البشر.

ثم يؤكد أن عمود البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به. ومن هنا كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن يؤودهم ويتصورهم منه.

والوجه الثاني: صنيع القرآن بالقلوب، وتأثيره في النفوس فلا تسمع كلاما غيره منظوما ولا منظوما إذا فرغ السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها. كما يفند الخطابي في رسالته جملة من الشبه والمطاعن أثارها بعض المعترضين لكتاب الله المجيد[17].

وبذل جهدا كبيرا في تحليل بعض نصوص القرآن الكريم تحليلا فنيا جميلا يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام والتعبير.

وممن أسهم بجهد ملموس في دراسة الإعجاز العالم المعروف أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ)، وهو من أعلام المتكلمين، له مصنفات كثيرة اشهرها كتاب "إعجاز

القرآن". استهل كتابه المذكور بالرد على مطاعن الملاحدة الذين طعنوا في أسلوب القرآن المجيد.كما يؤكد أن الإعجاز إنما يقوم على ثلاثة أوجه هي:

الوجه الأول: تضمن القرآن الكريم الأخبار عن الغيوب.

والوجه الثاني: إتيان القرآن الكريم بجملة ما حدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من خلق الله آدم (ع) إلى بعثة النبي محمد (ص)، علما أنه (ص) كان أميا لا يعرف شيئا عن كتب السابقين وأنبائهم.

والوجه الثالث: بديع نظمه، وعجيب تأليفه، وتناهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[18].

ويتحدث بإسهاب عن نظم القرآن محاولا تفسير نظريته قائلا: "إنه مخالف للمألوف من كلام العرب، وله أسلوب يتميز به، يباين أساليبهم في الكلام الموزون والمنثور بضربيه من السجع والترسل، وهو أسلوب فريد تطرد فيه البلاغة اطرادا يشمل جميع آياته دون أي تفاوت، بخلاف كلام الفصحاء.

ثم يقول: "إن القرآن– الكريم– يخرج في بلاغة صوغه عن طريق الإنس والجن، كما أنه يتفوق على كلام البشر في إيجازه وإطنابه، وصوره البيانيه والتعبيريه، ومن تمام ذلك فيه دقة وضعه الأسماء والألفاظ لمعانيه التي لم تكن متداولة بين العرب ولا مألوفة لهم، مما يكشف روعته أن الكلمة إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقا"[19]. غير أن الباقلاني لم يزد على ما ذهب إليه كل من الجاحظ في نظريته المرتبطة بنظم القرآن، والرماني في بيانه لبلاغة القرآن الرفيعة.

ومن يمعن النظر في كتابه "إعجاز القرآن" يلاحظ أن الباقلاني قد طبق نظريته في إعجاز القرآن على أمثلة كثيرة من نصوص كتاب الله المجيد. ويمتدح مصطفى الرافعي المؤلف ويؤكد على أنه ضمن كتابه روح عصره، وجعله في هذا الباب كالمستحث للخواطر الوانية والهمم المتثاقلة في أهل

التحصيل والاستيعاب الذين لم يذهبوا عن معرفة الأدب، ولم يغفلوا عن وجه اللسان، ولم ينقطعوا دون محاسن الكلام وعيوبه، ولم يظلوا في مذاهبه وفنونه[20].

وبعد عصر الباقلاني حظيت دراسة إعجاز القرآن والكشف عن وجوهه اهتماما كبيرا من بعض أئمة هذا الفن لاسيما عبد القاهر الجرجاني (ت 471). الذي كان له نصيب وافر في هذا المقام، وإننا لا نستطيع أن نفصل دوره في موضوع إعجاز القرآن، إذ أنه ألف فيه جملة من الكتب المعروفة سماها "الشافيه". بالإضافة إلى كتابيه المشهورين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" باعتباره أحد أئمة البيان والعربية.

إن عبد القاهر هو مؤسس الدراسة البلاغية، وأحد أئمة العربية وإعجاز القرآن والبلاغة، وله في عالم التأليف كتب قيمة في النحو و الصرف والعروض والتفسير وإعجاز القرآن والبلاغة.

غير أن عبد القاهر اشتهر أكثر ما اشتهر بكتابين تميزا بالإصالة والتجديد والابتكار هما: كتاب "أسرار البلاغة" الذي وضع فيه نظرية "علم البيان"، وكتاب "دلائل الإعجاز" الذي وضع فيه نظرية "علم المعاني".

وهو بهذين الكتابين يعد بحق واضع أسس البلاغة العربية والموضح لمشكلاتها، والذي على نهجه سار رجال البلاغة وأتموا البيان الذي رسم حدوده ومعالمه، وأرسى قواعده وأركانه.

تطرق الجرجاني لأراء السابقين عليه في الدرس البلاغي، وفند أقوال من ذهب بعيدا عن حقيقة الإعجاز، خاصة القول بالصرفة.

ومجمل رأيه في قضية الإعجاز يدور حول نظرية النظم، لأنه المعول عليها في إعجاز القرآن، وأن علم البلاغة هو الذي تكفل دون غيره ببيان ما في نظم القرآن من وجوه الإعجاز وأسرار البلاغة التي تعود إلى معاني الألفاظ بعد أن يلتئم شملها في النظم. فهو قد عقد في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فصولا صور فيها نظريته في النظم، و طبقها على جملة من النصوص القرآنية. فالجرجاني قد فحص كلام سابقيه في قضية الإعجاز وأخرج زبدته وقدمها في تأليفه

الثلاثة المتقدم ذكرها. ولقد بنى فكرته في الإعجاز على أساس عجز أساطين البلاغة من العرب عن معارضة كتاب الله المجيد.

غير أن مصطفى الرافعي يؤكد أن الرأي المشهور في الإعجاز البياني الذي ذهب إليه عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" لم يكن أول من صنف فيه ووضع من أجله كتابه المتقدم ذكره، فان أول من جود الكلام في هذا المذهب وصنف فيه أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت 306هـ) ثم الرماني (ت 382هـ) ثم عبد القاهر[21]. وهذا الرأي يشير إلى بدايات وضع علم البيان.

ونحن حين نلقي نظرة فاحصة في وضع البحث البلاغي خلال القرن الخامس الهجري، فإننا نجد علما شامخا قد حمل لواء التجديد في ميدانه عبد القاهر الجرجاني واضع نظريتي علمي المعاني والبيان في إطار علمي مفصل ودقيق.

فهو ينظر إلى المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية على أنها أركان الإعجاز وعمده، والأقطاب التي تدور البلاغة عليها، وفي ذلك يقول عبد القاهر: "ولم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز إلا ذكرها، وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية، وخصوصا الاستعارة و المجاز فإنك تراهم يجعلونها عنوان ما يذكرون، وأول ما يوردون"[22].

وفي عصر الجرجاني تكاد تكون قد استقرت تقريبا أراء العلماء وأقوالهم ونظرياتهم في قضية إعجاز القرآن الكريم.

فالقرن السادس الهجري خلا من دراسات مستقلة في البحث البلاغي عدا بعض النشاطات الفكرية البلاغية التي قام بها نفر من العلماء المفسرين، وهي لا تكاد تعدو تطبيقات لآراء البلاغيين السابقين من علماء هذا الفن المشهورين على ما استقرت لديهم نظرياتهم في قضية الإعجاز.

لقد أثر عبد القاهر الجرجاني على هؤلاء المفسرين في القرن المذكور تأثيرا كبيرا، وأشهر من تأثر به العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ) الذي فاق علماء عصره بآثاره

العلمية، وكان أكثر من أفاد من آراء عبد القاهر البلاغية، وذلك في تفسيره المشهور "الكشاف" ذلك التفسير الذي كان تطبيقا لقواعد البلاغة وأصولها.

فبعد أن استقرت نظريات الإعجاز في نهاية القرن الخامس الهجري تلقف الزمخشري بعضها بالتأييد والقبول والتبني، وبعضها الآخر بالرفض لمخالفة حقيقة الإعجاز نظير القول بالصرفة.

والجدير بالتنبيه أن الزمخشري لم يؤلف أي كتاب مستقل في موضوع إعجاز القرآن، وإنما طبق أدلة هذا الموضوع وشواهده التي تبناها وقررها على نصوص كتاب الله المجيد في تفسيره "الكشاف"، مما جعل بعض العلماء المختصين بالدرس البلاغي ممن جاء بعده أن يتناول موضوعي الإعجاز والبلاغة القرآنية بالاهتمام والإفادة من التفسير المذكور ويبلغوا مرادهم منها عن طريقه. فهو في هذا الاتجاه قد تأثر بدراسات عبد القاهر خاصة في نظرية النظم، والتي آتت ثمارها في تفسير "الكشاف" حين قرر الزمخشري أن علمي المعاني والبيان هما أملأ العلوم وأنهضها في كشف وجوه إعجاز القرآن وأسراره البلاغية، وأكد أيضا على أنه لا يتم تعاطي التفسير بدونهما[23].

ويؤكد الزمخشري هذا المعنى في موضع آخر من تفسيره فيقول: "وهذه الأسرار والنكت البلاغية في القرآن الكريم لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة بأكمامها"[24].

فالزمخشري كان في عهده لا يزال إماما لا يبارى في البلاغة، وله آراء كثيرة في مسائلها تشهد له بالتفوق فيها، بدليل رجوع كثير من علماء البلاغة المتأخرين بعده إلى آرائه يعتمدونها ويستشهدون بها ويعلقون عليها كالخطيب القزويني والسكاكي والزملكاني والسيد الجرجاني وغيرهم. فقد نقلت كتب البلاغة بعده آراءه التي تشهد له بالاجتهاد في مسائلها.

ومن يقرأ تفسيره يقف على كثير من مسائلها التي عرج عليها، وعرض لها، واجتهد فيها، وفاق في تحليلها. فقد أبان الزمخشري عن جمال النظم القرآني وبلاغته، فلا يضاهيه أحد من قبله أو من بعده في الكشف عن جمال أسلوب القرآن وأسراره البلاغية، لأنه برع في كثير من

المعارف والعلوم. خاصة إحاطته الواسعة بلغة العرب وشواهدها، وربط بين إعجاز القرآن وبين الأسلوب العربي في التعبير عن مقاصده ومعانيه ليكشف عن وجود الإعجاز.

ولقد كان المعتزلة يتجهون في تفسير الآيات المتشابهة اتجاها أدبيا محاولين تأويلها في ضوء استعمالات العرب لها في كلامهم وخاصة في الشعر. والزمخشري أحد أئمة المعتزلة في عصره اتجه هذا الاتجاه في كشافه ونهج الطريقة التمثيلية في التفسير.

إن تطبيقات الزمخشري البلاغية في تفسيره ودراسته لها تعد نهاية المرحلة المتميزة في استقرار الأبحاث البلاغية وعلم البلاغة. وامتدادا لأبحاث عبد القاهر في نظرية النظم التي أضاف إليها الزمخشري من حسه وعقله آراء أكمل فيها شعبها ودقائقها ومقاييسها، وهذا ما نبه عنه شوقي ضيف حين أكد على أن الزمخشري استوعب ما كتب عبد القاهر في مؤلفاته البلاغية. ومضى يطبقها تطبيقا دقيقا على آي الذكر الحكيم فلم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء الجرجاني إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من القرآن الكريم. ومضى يتمم هذه الآراء وقد أضاف إليها من حسه المرهف وعقله الثاقب خاصة في مباحث علمي المعاني والبيان التي أكمل شعبها ودقائقها إكمالا سديدا[25].

لقد بذل الزمخشري جهودا كبيرة وعناية فائقة في إبراز ألوان البيان والمعاني والبديع وصوره الجمالية في كتاب الله المجيد، ولعب دورا هاما في البلاغة العربية القرآنية رقى فيها إلى منزلة عبد القاهر الجرجاني.

يقدم لنا هذا المفسر دراسة أدبية كاملة البيان في تفسيره صور فيها الإعجاز القرآني بأحسن صورة، وكشف عن أسراره البلاغية البيانية والجمالية، مما يدل على أنه ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير القرآني البلاغي بلغ الذروة، ولا خلاف في كون تفسير "الكشاف" هو أكمل التفاسير التي شرحت الإعجاز. فهو قد بذل جهدا منقطع النظير في الكشف عن النظم

القرآني والجمال البلاغي في القرآن، وانبهر أمام بلاغته وحسن نظمه في مفرداته وجمله، لأنه فوق كلام البشر[26].

وأشهر من تأثر به من العلماء مفسر كبير معاصر له ألا هو الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548هـ) أحد مؤلفي المطولات التفسيرية "مجمع البيان"، فقد سلك منهج الزمخشري ونحى منحاه في عنايته الكبيرة في إبراز الوجوه البلاغيه القرآنية وصورها الجمالية فصنف تفسيره المعروف بهذا الاتجاه "جوامع الجوامع". لقد أفاد هذا المفسر من "الكشاف" خير فائدة في عرض الصور البيانية والجمالية التي ورد بها كتاب الله المجيد، معترفا بفضل الزمخشري عليه في تصنيف تفسيره المذكور وهو مطبوع و محقق[27].

وبعد عصري عبد القاهر والزمخشري توقف الأمر فلم تتقدم البلاغة، بل سلكت طريقا مغايرا قادها تدريجيا إلى الانحطاط والتأخر والجمود. فلقد وقف المتأخرون مبهورين بما توصل إليه كل من عبد القاهر الجرجاني والزمخشري في الدرس البلاغي فلم يضف علماء تلك الفترة جديدا، بل اقتصروا على دراسة بلاغة عبد القاهر وتدريسها جيلا بعد جيل، واكتفوا بشرحها أو اختصارها في أساليب امتزجت بها صيغ معقدة في الفلسفة والمنطق.

فالبلاغيون بعد عصر الزمخشري- كما يؤكد أحد الباحثين المعاصرين[28]- قد وقفوا مبهورين أمام بلاغة الزمخشري وقبله عبد القاهر، وظنوا أن عبد القاهر لم يترك موضعا لمستزيد، ولهذا وقفوا أنفسهم على بلاغته يشرحونها ويلخصونها ويختصرونها في أساليب تشيع في أكثرها الصيغ والتعابير الفلسفية والمنطقية المعقدة، وإذا خطر لأحدهم أن يضيف جديدا جاءت إضافته وفيها مزيد من التعقيد الذي يستثير غيظ النفوس، ولا يثير حماسها وإقبالها على البلاغة.

# فهرس هوامش البحث

1-الإسراء/الآية88.

2- هود/الآية13.

3-يونس/الآية38.

4-ففي تاريخ الطّبري أمثلة كثيرة من ذلك. أنظر على سبيل المثال تاريخ الطّبري، طبعة بولاق مصر315/20-406، وسيرة ابن هشام، تحقيق الدّكتور محمّد فهمي السرجاني طبعة المكتبة التّوفيقيّة/ مصر 240/2-273 وسائر المصادر الأدبيّة والقرآنيّة والتّاريخيّة.

5-البرهان، للزّركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- ط بيروت 95/2.

6-طوق الحمامة، لابن حزم، مكتبة الحياة، بيروت ص95/2-123، وسرح العيون، لابن نباته، المطبعة الأميريّة ص132.

7-إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق أحمد صقر، مطبعة دار المعارف ص30، والإتقان للسّيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الهيئة العامّة للكتاب8/4 وما بعدها.

8و 9 إعجاز القرآن للباقلاني ص47.

10 المصدر نفسه ص146.

11-المصدر نفسه ص47.

12-طبقات المفسّرين، للداودي، نشر مكتبة وهبة/القاهرة419/1.

13-وهي مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز.

14-أنظر: ثلاث رسائل في الإعجاز-الرسالة الثّالثة، مطبعة دار المعارف ص57 وما بعدها بتصرّف واختصار.

15-تذكرة الحفّاظ، للحافظ الذّهبي، حيدر آباد/الهند1018/3.

16-وهي مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز.

17-راجع تلك الرّسالة من أوّلها إلى آخرها.

18-إعجاز القرآن، للباقلاني ص51.

19-المصدر نفسه ص70.

20-إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى الرّافعي، مطبعة الجزائر ص153 وما بعدها.

21–المرجع نفسه ص148.

22–دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، القاهرة ص229 وما بعدها، وانظر تاريخ البلاغة العربيّة، د.عبد العزيز عتيق، مصر ص242 بتصرّف.

23–الكشاف، للزّمخشري، مطبعة مصطفى الحلبي16/1.

24–المصدر نفسه189/1 و302/2.

25–البلاغة تطوّر وتاريخ، شوقي ضيف، مصر ص242 بتصرف.

26–راجع تفسير الزّمخشري بكامله، حيث تجد عناية المفسّر عناية فائقة في إبراز الصّوّر البيانيّة والجماليّة لآيات الكتاب المجيد.

27–أنظر: جوامع الجامع، للطبرسي، طبعة طهران3/1 (المقدّمة).

28–في تاريخ البلاغة العربيّة، د.عبد العزيز عتيق مطبعة دار النّهضة العربيّة/بيروت ص268.